قصة أب

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

حدثنى المسكين فيما حدَّث وهو يصف ما نزل به قال :

رأيت الناس قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً فَنَسأ بالولد فى آثارهم ، ومدَّ بالنسل فى وجودهم ، وزاد منه فى أرواحهم أرواحاً ، وضمّ به الى قلوبهم قلوباً ، وملأ أعينهم من ذلك بما تقرّ به قُرَّةَ عين كانت لم تجد ثم وَجدت ، فهم بهؤلاء الأطفال يملكون القوة التى ترجعهم أطفالاً مثلهم فى كل ما يسرهم ، فيكبر الفرح فى أنفسهم وإن كان فى ذات نفسه ضئيلاً صغيراً ، ويعظم الأمل فى أشيائهم وإن كان هو عن شىء حقير لا يُؤْبه له ؛ وتلك حقيقة من حقائق السعادة لا أسمى ولا أعظم منها إلا الحقيقة الأخرى ، وهى القوة التى يتحول بها الكون فى قلب الوالدين الى كنز من الحب والرحمة وجمال العاطفة ، بسحر من ابتسامة طفل أو طفلة ، أو بكلمة منهما أو حركة ، على حين لا يتحول مثل ذلك ولا قريباً منه بمال الدنيا ولا بملك الدنيا .

رأيت الناس قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً ؛ ولكنه ابتلانى بأن أكون أباً ، وأخرج لى من أفراح قلبى أحزانَ قلبى ! ولقد كنت كرجل ملك داراً يستمتع بها ، فتمنى أن يشرع[1] فى جانب منها غرفة يُزَخرفها ، فلما تم له ذلك وبلغ المقْترح انهدمت الدار ، وبقيت الغرفة قائمة !

عَمْرَكَ اللهَ ، أيشعر هذا الرجل فى نكبته بالغرفة أم بالدار ؟ وهل تراه زاد أو نقص ؟ ويا ليتهما بيت وغرفة من بيت ؛ فان الحجارة تحيا بالبناء اذا ماتت بالهدم ، ولكن من ذا يحيى الزوجة ماتت بعد أن وضعت بِكرَها الأول والآخر :

إنها طفلة وُلدت وكأنما أُخرجت من تحت الردم إذ وُلدت تحت ماضٍ من الحياة منهدم . وهل فرقٌ بين هذا وبين أن تكون أمها قد ولدتها فى الصحراء ثم أُكرهت أن تدعها وحدها فى ذلك القفر تصرخ وتبكى ! فالمسكينة على الحالين منقطعة أولَ ما انقطعت من حنان الأم ورحمتها .

طفلة وُلدت صارخة ، لا صرخة الحياة ، ولكن صرخة النوْح والندب على أمها .

صرخة حزينة معناها : ضعونى مع أمى ولو فى القبر !

صرخة ترتعد كأن المسكينة شعرت أن الدنيا خالية من الصدر الذى يُدفئها !

صرخة تتردد فى ضراعة كأنها جملة مركبة من هذه الكلمات : « يا رب ارحمنى من الحياة بلا أم .! »

* * *

قال المسكين وهو يبكى امرأته :

ولما ضَربها المخاض ضاعفت قوتها من شعورها أنها ستكون بعد قليل مضاعفة ، وستكون روحين لا روحاً واحدة ، وتلد لى الحياة والحبَّ الالٰهىّ معاً ، وتأتى لقلبى بمثل طفولته الأولى التى يستحيل أن تأتى الرجلَ إلا من زوجه . كل ذلك ضاعف قواها ساعة وشدّ منها ، ولكن ما أسرع ما تبينتْ أنه الموت إذ عُضِّلتْ وعسر خروج مولودها وجاءها الجراحىّ بمبضعه ، وكأنما رأته ذابحاً لا طبيباً فجعلت تعبر بعينيها إذ لم تملك فى آلامها القاتلة غير لغة هاتين العينين .

كانت بنظرة تبكى علىّ وعلى بؤسى ، وبأخرى تبكى على بؤس مولودها وشقائه ؛ وبنظرة تودعنى ، وبأخرى تدعو الله لى جزاء ما أحسنت اليها ؛ وبنظرة تتوجع لنفسها ، وبأخرى تتألم من أنها ترانى أكاد اجن .

نظرات نظرات .

يا إلٰهى ! لقد خيل إلىّ أن ملك الموت واقف بين عشرين مرآة تحيط به ، فأنا أراه موتاً متعدداً لا موتاً واحداً . وكل نظرة من عينىْ زوجتى إلىّ كانت منها هى نظرةً ، وكانت عندى أنا مرآةَ الروح للروح .

ولكنها لم تنس أنها تموت لوضع مولودها ، وأن هذه الآلام الدموية الذابحة هى الوسيلة لأن تترك لى بقية حية منها ؛ فيا للرحمة والحنان والحب ! لقد ابتسمت لى وهى تموت ، وهى تلد ، وهى تذبح !

* * *

ليست رحمة المرأة المحبة خيالاً إلا اذا كانت حرارة الشمس

(١) أى يفتح غرفة الى الشارع

التى تحيي الدنيا خيالاً أيضاً ؛ إن هذا القلب النسوى المستقر فوق أحشاء تحمل الجنين صابرة راضية فرحة بآلامها ، وتغذوه وتقاسمه حياة نفسها — هذا القلب يحمل الحب أيضاً صابراً راضياً فرحاً بآلامه ، ويغذوه ويقاسمه حياة نفسه . وللرحمة الالهية أدلة كثيرة تدل الانسانَ عليها دلالاتٍ مختلفة ؛ فالشمس تدل عليها بالضوء الذى تَطعمه الحياة ، والهواء يدل عليها بالضوء الذى تتنفسه الحياة ، والماء يدل عليها بالضوء الذى تشربه الحياة ، وهكذا الى أن يأتى فى الآخر قلب المرأة فيدل على رحمة الله بالحب الذى تقوم به الحياة .

ابتسامة الحب غالبت زفراتِ الموت التى تعتلج من تحتها حتى غلبتها ، وأعادت الحياة لحظة الى وجه زوجتى لأراها آخر ما أراها فى صورة المُحبة ، فكان كل جمال نفسها منتشراً على ذلك الوجه ، وظهرت فيه روحها وعواطفها تودعني وداعاً حزيناً متبسما يتكلم ؛ يتكلم بعجزه عن الكلام .

ابتسامة لا ريب أن فيها أشياء ليست من جمال هذه الدنيا ولا من حقائقها ؛ فكأنما التمعت بأشعة من الخلد ترفّ رفيفها على وجه الحبيب ليظهر ساعة الموت أن حبه أقوى من الموت .

***

قال المسكين : ونثر الطبيب ذابطِنها فكانت طفلة ، وما كانت زوجتى تقترح أن يكون الجنين غيرها ، بل كانت مستيقنة أنها تضعها أنثى ، وصنعت لها ثيابها ، ووشتها بزينة الأنوثة ، وعرضت أسماءَ البنات فاختارت اسمها أيضاً ، وكنت أكره ذلك منها وأريد ولداً لابنتا ، فكانت تغايظنى بعملها وإصرارها غيظ دعابة لا غيظ جفاء .

ومضت لا تذكر إلا بنتها مدة الحمل ، ولا تتكلم إلا عن بنتها ، وقد كنت أعجب لذلك ، فلما قضى الله فيها قضاءه علمت أن ذلك أمر من أمر الروح ، فكان الالهام فيها أنها على باب قبرها وأنها لن ترى طفلتها ولن تعيش لها ، فعاشت أيام الحمل مع ذكراها ، تضم ثيابها الى صدرها ، وتحملها على يدها ، وتناغيها وتقبّلها ، وتأخذها من الوهم وتردّها اليه . وكذلك نعمت المسكينة بالمسكينة !

لكِ الله يا معجزة الرحمة ، يا نفس الأم !

ولما قيل : ماتت — جعل يكلمني المتكلم ولا أعقل ، فان الكلمة التى تأتى بالمصيبة المتوقَّعة طال ارتقابها — لا تأتى بمعان لغوية كغيرها من الكلام ، بل بأسلحة تضرب فى النفس وفى العقل ، وتُثْخِنُهما جراحا وفتكا .

وجعلني موتها كأنى ميت يحمل نفسه ، ماحوله إلا المشيّعون ، وأحسست كأن قوة أخذت باحدى رجليّ فوضعتها فى الآخرة ، وتركت الثانية فى الدنيا ، ولحقني من الجزع ما الله عالم به ، ووجدت أحرق الوجد ، وبكيت أحر البكاء ؛ وجعلتْ أفكارى تنحدر من رأسى إلى حلقى فأختنق بها ، ثم لا يُنفّس عني إلا الدمع ، كأن أعضائى اختلّت مما ضغطنى من الحزن فأنا أتنفس برئتيّ وعينيّ .

بموتها شعرت بها ، ولعله من أجل ذلك لايشعر الانسان بلذة الحب كاملةً إلا فى آلام الحب وحدها ، وكانت فى حياتها تضع من روحها فى سرورى ، وهذا هو سر المرأة المحبوبة ، يجد مُحِبُّها فى كل سرور لمحات روحانية ، وكذلك فعلت بعد موتها ، فجعلت روحها فى أحزانى ؛ ولولا أن روحها فى أحزانى لقتلتْني المصيبة .

وكنت أدلف وراء النعش وقد بطل فى نفسى الشعور بالدنيا ، وكان الناس يمشون حولى بما فيهم من الحياة ، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنهم سائرون كما يذهبون إلى كل مكان ، أما أنا فكنت أمشى بما فيّ من الحب منكسراً منخذلا متضعضعاً ، لأنى وحدى سائر وراء مالا يُلحق .

وثقل الناس على قلبى ، ورجع كل أمرهم عندى إلى العيب والنقيصة ، إذ كان لى عقل طارئ من الحالة التى أنا فيها ليس مثلُه لأحدٍ منهم ، وكنت وحدى المصاب بينهم ، فكنت وحدى بينهم العاقل .

أنا أمشى لأنتهى إلى آخر مصيبتى ، وهم يمشون لينتهوا إلى آخر الطريق ؛ وشتّانَ ما نحن وشتان !

ولما رأيت قبرها ابتدرت عيناى تنظران بالدموع لابالنظر ، ورأيت التراب كأنه غيوم ملوّنة بألوان السحب السوداء تهيأ فى سمائها تحت الظلام لتخفى كوكباً من الكواكب ؛ وظهر لى القبر كأنه فم الأرض يخاطب الانسان بحزم صارم ، يخاطب الفقير

والغنى ، والضعيف والقوى ، والملوك والصعاليك : « إن كل قوة تُنزَع هنا »

***

قال المسكين : وكما يجد الانسان فى أيام المطر رائحة النسيم المبتلّ بالماء كنت أستروح فى رجعتى إلى الدار رائحة نسيم مبتلّ بالدموع ، وحضرت المأتم وعزّانى الناس فكنت فيهم كالمأسور بينهم لا أتمنى إلا أن يَدَعونى فأبجوَ على وجهى ، ولا أرى إلا أنهم يجرّعوننى الوجودَ غُصصاً كما تجرعت الفقدَ غصة غُصة ، إلا أن تفرقوا مع سواد الليل ، فانكفأت إلى الدار فاذا كل شىء قد تغير ولمسه الموت لمسة ، واذا الدار نفسها كالعين المقروحة من آثار البكاء ، ما تَمّ إلا ليطالعني بأن مسراتى قد ماتت !

ولاح الصبح لعينىّ الساهرتين صبحاً فاتراً تبينتُ فيه الخجل كأنه يقول : « لم أطلع لك » ، فانسللتُ من البيت ، وذهبت أمشى فى دنيا هى الكآبة المضيئة ، سِخرت الأقدار منها باظهارها فى هذا الضوء مَظهرَ وجه العجوز المتصابية فى زينة لا تزيدها إلا قبحاً !

ومضيت على وجهى لا غاية لى ، أضرب فى كل جهة كأنما أريد أن أهرب من نفسى ! وما خطر لى قط أنى فى يوم جنيت ، بل كنت عند نفسى لا أزال فى أمس ، وتغير عندى الزمان والمكان ؛ فأحدهما ساعة موت لا تترك مافيها ، والآخر قبر ميّتة لا يرد ما فيه .

آه من الوقت الذى ينتهى فيه الموجود ليعذبنا بالتذكر أنه كان موجوداً !

***

قال المسكين : ثم أعادتنى قدماى إلى البيت لأرى طفلتى — وما كنت رأيتها — ولقد كانت ولادتها أولَ الحياة لها ، وأول الحياة لى أيضاً ، إذ لولاها لانتحرت غيرَ شكّ .

يا ويلتا ! لم تلتق عينى بعين الطفلة حتى انفجرت تبكى ، أتبكين لى يا ابنتى أم علىّ ؟

أهذا بكاؤك أيتها المسكينة ، أم هو صوت قلبك اليتيم ؟

أصوتكِ أنتِ ، أم هى روح أمكِ تصرخ ترثى لى وتتوجع لفرط ما قاسيت !

يا ابنتى ، إنما أنتِ الحقيقة الصغيرة التى خرجتْ لى من كل تلك الخيالات الشعرية الجميلة — خيالات الأيام السعيدة التى مرّت !

يُخلَق المواليد من اللحم والدم ، وأراكِ أنتِ يامسكينة ، خلقتِ من اللحم والدم والدموع !

بقيّة حياةٍ ماتت ! فهل معنى ذلك إلا أنكِ بقية موتٍ يحيا ؟

مسكينة ، مسكينة ، لو أن نواميس العالم متغيرة لشىء لتغيرت من أجل بؤسك فردّت لك الأم ، ولكنها لن تتغير ، وما بكاؤنا وآلامنا وتعاستنا إلا تراث الحياة فى أجسامنا الأرضية ؛ كل ذلك طبيعة ، ولكن بقعة أنظف من بقعة ، وأراكِ يا ابنتى كالبيت الذى هُدِم أوّل ما بنى يملؤه ترابه !

لن تتغير النواميس ، فلن تجدى عطف الأم ، ولكن لن يتغير قلبى أيضاً ، فلن تحرمى عطف الأب .

وإذا صبر الناس على الحياة فمن أجلكِ يا مسكينة ! من أجل ضعفك وانقطاعك سأعانى الصبر لك ، وأعانى الصبر لى ، وأعانى الصبر عن أمك ، سأصبر على الصبر نفسه !

يا ابنتى ، يا ابنتى ، لماذا وضعتك الأقدار من هذه الحياة فى الناحية التى ليس فيها إلا قبر مظلم مقفل على أمكِ ، وأب مسكين مقفل على آلامه ؟!

***

قال المسكين : وهكذا كتبتُ من أهل البؤس والهم ، فلم أتزوج إلا لتصنع لى حبيبتى دموعى ، ثم لم تمت إلا بعد أن تركت لى حبيبةً أخرى ستظل زمناً طويلا تصنع لى دموعى !

(طنطا) **مصطفى صادق الرافعى**

الرسالة فى شهور الصيف

تسهيلا لوصول الرسالة الى قرائها مدة العطلة تقبل الادارة الاشتراك الشهرى بواقع أربعة قروش عن كل أربعة أعداد تدفع مقدماً